دراسات المكتبات والمعلومات والإبداعات العربية:

فى الفلسفة والنظرية والعلم

أ.د. أحمد بدر

أستاذ علم المكتبات والمعلومات

(غير المتفرغ) بجامعة القاهرة

مقدمة :

السؤال الذى طرحه د. زين الدين عبد الهادى علىّ فى ندوة نظمها بعنوان ملتقى تأصيل الفكر العربى هو : هل هناك فلسفة عربية لعلم المكتبات والمعلومات والإجابة فى حاجة إلى دراسات جادة وندوات عديدة .. لا تتناول البعد الحاضر وحده، بل تغوص فى الماضى البعيد والقريب، وتتكامل فيها الدراسة بين البعدين الأكاديمي والعلمى فى الممارسة .. فضلاً عن ضرورة تكامل الفلسفة مع النظرية مع العلم أيضاً. وقد وضع الباحث كلمة «الإبداعات» العربية فى العنوان بدلاً من كلمة «التناقضات» التى كشفها فى الإنتاج الفكرى لمن يرون أن هناك فلسفة لعلم المكتبات والمعلومات ومن ينكرون الفلسفة فى هذا العلم، وكذلك الحال بالنسبة للنظرية حيث تعددت الرؤى والاختلافات، وأخيراً فهل علم المكتبات والمعلومات علم بين العلوم الطبيعية يخضع للمنهج التجريبي أم أنه علم اجتماعى أم أن الأصل هو المشكلة التى يتصدى لها هذا العلم، وبالتالى اختيار المنهج الملائم .. وكل واحدة من هذه الاختلافات كانت رؤى وإبداعات من قبل الباحثين العرب للوصول إلى صيغة ملائمة مع هذه الجوانب الثلاث ذلك لأن الفلسفة يمكن تعريفها بأنها حب الحكمة، كما أن الفلسفة أيضاً مصدر مناسب للفروض الجديدة، وهذه بدايات للنظريات ثم التعميمات والقوانين التى تحكم نشاط العلم والمهنة، فالفلسفة قد تعنى بذلك البحث عن الحقيقة ومتابعتها ووضع المبادئ والأسس اللازمة لتسيير العمل وإنشاء النظريات التى تشرح حقائق علم المعلومات والمكتبات .

ولقد كانت فلسفة المكتبات ووحدة المعرفة هى إحدى فصول كتاب المؤلف عن المكتبة والثقافتين عام ١٩٧٥ وقد تطورت هذه الأفكار الفلسفية إلى كتابين نشرا بعد حوالى ثلاثين عاماً أى عام ٢٠٠٢م، أحدهما عن الفلسفة والتنظير فى علم

المعلومات والمكتبات، والثانى عن التكامل المعرفى لعلم المعلومات والمكتبات وإذا كان الكتاب الأول قد تناول الفلسفة والتنظير فى علم المعلومات والمكتبات مركزاً على الإنتاج الفكرى الأجنبى فالكتاب الثانى قد ركز على الارتباطات الموضوعية المتعددة أو المتداخلة Multidisciplinary or interdisciplinary كواحدة من الخصائص المميزة لعلم المعلومات والمكتبات واقترح له الباحث نظرية رابطة أيضاً Metatheory تعكس هذه الارتباطات وقد تزامن هذا التفكير مع العديد من المفكرين الأجانب وآخرهم الباحث جاك جلازير فى مقاله عن الإطار المتعدد الارتباطات وبناء النظرية (Glazier, J. 2002) ومتزامناً فى ذلك مع كتاب أحمد بدر التكامل المعرفى لعلم المعلومات والمكتبات (٢٠٠٢م) وسبقه فى موضوع النظرية والعلم الكثيرون فمنهم من يرى تطبيق نظرية العلم على نظرية البحث عن المعلومات (فيكارى) ومنهم من يرى أننا لا نملك نظريات واضحة فريدة لعلم المعلومات وعادة تطبق نظريات من حقول أخري (هورلند) ومنهم من يرى النظرية الرابطة كأساسية لعلم المكتبات والمعلومات (براين فيكرى) وأحمد بدر (التكامل المعرفى، ٢٠٠٢) .

وستناول هذه الدراسة المحاور التالية :

أولاً : علم المعلومات والمكتبات المعاصرة علم عالمى وله فلسفة وممارسة وطنية وعربية أيضاً .

ثانياً : الفلسفة مع مهنة المكتبات والمعلومات عبر التاريخ .

ثالثاً : بين الحاجة إلى فلسفة موحدة لعلم المكتبات والمعلومات والأفكار المتناقضة حول هه الفلسفة وماذا عن الفلسفة العربية؟

رابعاً : بعض الأصول الفلسفية لعلم التصنيف ونظرياته وهل هناك إسهام عربى ؟

خامساً : مناهج البحث بين المنطق الاستنباطى والتعليل الاستقرائى والإسهام العربى .

سادساً : ماهية النظرية فى بحوث علم المكتبات والمعلومات واختلاف وجهات النظر بالنسبة لدراسات النظرية والنظرية الرابطة .

سابعاً : علم المعلومات علم رابط بين العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية .

ثامناً : نحو فلسفة ونظرية عامة للمكتبات والمعلومات وجذور الحضارة الإسلامية العربية .

أولاً : علم المعلومات والمكتبات المعاصر علم عالمى وله فلسفة وطنية :

علم المكتبات والمعلومات المعاصر : هو علم علمى فمعظم رواد علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربى حصلوا على مؤهلاتهم العليا (الماجستير والدكتوراه) من أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا .. والجامعات فى الدول المتقدمة السالفة تتبادل فيما بينها البرامج والباحثين، وتتم البحوث المشتركة بينها وبين بعض البلاد المتقدمة أو النامية الأخرى فى مجالات علم المكتبات والمعلومات، والقواعد الأساسية فى علم المكتبات والمعلومات فى الإدارة والفهرسة الوصفية والفهرسة الموضوعية والتكشيف والتصنيف والخدمات والاقتناء والاستخدام التكنولوجى الهائل فى مختلف هذه

الأنشطة وعلى قمتها شبكة الشبكات الإنترنت أمر واضح وواقع لكل المنتمين للمهنة ..

ومع ذلك فهناك تعديلات وتأصيلات وطنية لهذه التطورات التى اتخذت طابعاً عالمياً قاطرته الرئيسية هى الولايات المتحدة الأمريكية أردنا ذلك أم أبينا، أى أن هناك تعديلات وتأصيلات لهذه التطورات لها طابع وطنى واضح أيضاً، تمليه طبيعة الإنتاج الفكرى الوطنى بلغاته المتعددة وتنظيماته وتطوراته المختلفة .. وأية ذلك من توحد أو تكامل واضح بين أمريكا وبريطانيا وكندا (فى القواعد الأنجلوأمريكية وغيرها) وفى التعريبات والتأصيلات العربية لهذه القواعد (والتى بدأها سعد الهجرسى وقادها محمد فتحى عبد الهادى بعد ذلك) .. أما بالنسبة للتنظيمات الهيكلية فى مجال العلوم والتكنولوجيا مثلاً نجد فى أمريكا التخطيط اللامركزى التخصصى واضح فى مطبوعاتها : كالمستخلصات الكيميائية، المستخلصات الفيزيائية .. (المكتبة الوطنية الزراعية والمكتبة الوطنية الطبية ومكتبة الكونجرس) وهذه التنظيمات تختلف نوعاً ما فى فرنسا (المكتبة الوطنية / المركز القومى للبحوث العلمية والتكنولوجية) الذى يصدر المطبوعات الشاملة وفروعها التخصصية ويظهر ذلك فى مطبعاتها المركزية وفروعها Bulletin Signalitique (chimie,..) وفى روسيا الاتحادية (يقترب التنظيم من فرنسا حيث تصدر الدورية الرئيسية المرجعية Referativinia Zhurnal والتى تنقسم بدورها للتخصصات العلمية المختلفة وقد ذكرت هذه الاختلافات الوطنية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا ولكن الاختلافات أكثر وضوحاً فى مجالات الإنسانيات، ولا يخطئ النظر التطور المعاصر الذى يتم فى الصين صاحبة المليار وثلاثمائة نسمة إذ تسير قدماً بقدم مع التطور الأمريكى فى جميع مجالات وخدمات المكتبات والمعلومات، كما أفادت بشدة من الخبرات البريطانية فى تطوير منظومات المكتبات والعلومات فى الصين ولعل من أواخر ما قرأناه فى الإنتاج الفكرى إنشاء أو سى ال سى الصينى OCLC، أى أنها تقدم بتقليد واحدة من أكبر المرافق العالمية وتطوعها لبيئتها ولغتها الوطنية، أما بالنسبة للوطن العربى فهناك تنظيمات عديدة ومعظمها متأثر بالتطورات الأمريكية .

أما بالنسبة لعلم المكتبات والمعلومات فى مصر فقد بدأ منذ بداية الخمسينيات وكان متأثراً بدراسات الوثائق أى أن البداية متأثرة إلى حد ما بالفكر الفرنسى ولكن سرعان ما كان التأثير البريطانى والأمريكى واضحاً .

وإذا كانت دراسات «المكتبات» فى معظم الدول الأوربية والأمريكية تقع ضمن الدراسات الإنسانية حتى نهاية الخمسينيات، فقد أصبحت هذه الدراسات للمكتبات (والمعلومات) فى هذه الدول منذ بداية الستينات من القرن العشرين حتى الآن، وذلك نظراً لدخلو الكثيرين من علماء العلوم الطبيعية فى تطوير التدريس والممارسة فى علم المكتبات والمعلومات حيث خرجت دراسات المكتبات والمعلومات من عباءة الإنسانيات إلى المعرفة كلها. كما كان هذا التطور واضحاً فى مصر أيضاً، وفى عدد من الأقطار العربية كالسعودية، وبدأ تدريس علم التوثيق والمعلومات فى منتصف الستينيات بجامعة القاهرة على يد أحمد بدر (وتخصصها الأساسي فى الكيمياء ورسالته للدكتوراه فى المعلومات العلمية) وكان بين طلابه محمد فتحى عبد

الهادى الذى ألف أول كتاب بعنوان مقدمة فى علم المعلومات، ومن بين طلابه أيضاً حشمت قاسم الذى ركز على دراسة المكتبات «وعلم المعلومات»، وهذا هو عنوان الدورية التى يرأس تحريرها، ولعل ذلك فى حد ذاته يعكس حركة انفصام فى المهنة استمرت أيضاً حقبة طويلة فى الدول الأوروبية والأمريكية ومازالت، وأخيراً وليس آخراً فقد كان زين الدين عبد الهادى من بين طلاب أحمد بدر أيضاً وهو أول من كتب عن الإنترنت عام ١٩٩٤ فى الإنتاج الفكري العربي وقد اقترح منهج لتدريس المراجع – لتطوير أفكار سعد الهجرسى – والإفادة القصوى من شبكة الإنترنت هذا وقد بدأت دراسات المكتبات منذ البداية كدراسات فى المرحلة الجامعية الأولى (الليسانس) وتختلف بالتالى عن أمريكا حيث الدرجة المهنية الأولى هى الماجستير، على أن يسبقها أى مؤهل جامعى من الطب أو الهندسة أو القانون أو الآداب أو غيرها .. وحاولت مصر الإفادة من هذا الاتجاه بإنشاء الدبلومات العالية التى تؤدى إلى الدراسة المنهجية للماجستير والدكتوراه فى المكتبات والمعلومات ولكن هذه الدبلومات لم تلق إقبالاً كبيراً كما كان منتظراً.

وعلى كل حال فمما يسترعى الملاحظة والتأمل أن معظم أعضاء هيئة التدريس أو كلهم فى مصر أو بعض البلاد العربية، قد قاموا بترجمة كثير من أدب المكتبات والمعلومات والوثائق خصوصاً من اللغة الإنجليزية إلى العربية، واستوعبوا ذلك فى دراساتهم وممارساتهم للمهنة، ومثال واحد فقط هو حشمت قاسم فكتبه المؤلفة الخمسة تضم (١٨٧٨) صفحة والكتب المترجة الثلاث عشرة تضم (٥٢٧١) صفحة وحركة الترجمة فى مجال المكتبات والمعلومات هذه شبيهة بحركة الترجمة فى بداية نهضة مصر الحديثة على يد محمد علي الكبير، وكما ردد الباحث بالنسبة لتأصيل الفكر العربى، أن المتخصصين المصريين والعرب قد استوعبوا – إلى حد كبير – التطورات العالمية فى المجال وطوعوا كثيراً منها للبيئة العربية وهذا فى حد ذاته فلسفة لتأصيل الفكر العربي المعاصر.

وإذا كانت معظم البرامج والمقررات ومحتوياتها تكاد تتطابق مع نظيراتها الأمريكية والإنجليزية فهناك بعض المواد ذات الصبغة الوطنية كالمخطوطات الإسلامية(*) وتاريخ المكتبات .. كما تطورت مواد كالتصنيف والفهرسة الوصفية والموضوعية بما يتلاءم مع الاحتياجات الوطنية خصوصاً من ناحية الثقافة واللغة العربية. وقد بدأ الشنيطى وكابش بتعريف الطبعة المختصرة لتصنيف ديوى العشرى مع إحلال الدين الإسلامى واللغة العربية والأدب العربي فى مكان الصدارة فى النسخة العربية وكان موجوداً فى الأصل لديوى تحت اسم الديانة الطبيعية Natural Religion كما كانت هناك محاولة رائدة لوضع تصنيف لعلوم الدين الإسلامى قام بها د. عبد الوهاب أبو النور ولكنها لم تجد الأرض الخصبة المناسبة التطبيق والنمو ومع ذلك فقد كانت الترجمات إلى العربية للتصنيف العشرى العالمى واستخدامها فى تصنيف وحصر الكفايات العلمية بالجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء والذى قام به فريق من المركز القومى للإعلام والتوثيق

(*) الجائزة التى حصل عليها أ.د. عبد الستار الحلوجي هى جائزة الملك فيصل العالمية كانت فى موضوعها «المكتبات وصناعة الكتاب عند المسلمين» .

(أحمد كابش وأحمد بدر وفؤاد إسماعيل وبهاء الحديدى وغيرهم) وكان هذا الجهد ذا فائدة كبيرة للذين قاموا بتعريب تصنيف ديوى العشرى فى طبعاته الكاملة والمختصرة القديمة والحديثة وكان للاكسو (إدارة التوثيق والمعلومات) دوراً هاماً فى دفع هذا التعريب إلى الأمام .

أما بالنسبة للفهرسة الموضوعية ووضع قوائم رؤوس الموضوعات فقد كان لإبراهيم الخازندار دور رائد فى وضع قائمة رؤوس موضوعات عربية (بجامعة الكويت بإشراف أحمد بدر مدير مكتبات الجامعة فى ذلك الوقت) ثم هناك قائمة رؤوس الموضوعات للعلوم الاجتماعية التى وضعها د. محمد فتحى عبد الهادى وقائمة رؤوس الموضوعات الكبرى التى أعدها شعبان خليفة ومحمد العايدى.. وما ينبغى الإشارة إليه أن هذه القوائم – على الرغم من الجهد الكبير والمضنى الذى استمر لسنوات عديدة، فمازالت قاصرة على اللحاق بالقوائم العالمية (قائمة رؤوس موضوعات مكتبة الكونجرس التى تتجه إلى التعديل المكنزى) ومثل قائمة رؤوس الموضوعات الطبية التى أصدرتها المكتبة الطبية الوطنية فى أمريكا .. كما ينبغى الإشارة إلى أن هذه القوائم مازالت أيضاً بعيدة عن الاتجاه المكنزى والمكانز المتخصصة بصفة عامة (فالمكنز الهندسى Engineering thesaurus مثلاً يحتوى على حوالى ١٨٠,٠٠٠ مدخل) .. ولا ننسى فى هذا السبيل ما قام به أ.د. محمد فتحى عبد الهادى من إعداد قائمة رؤوس موضوعات التربية أيضاً وغيرها من أعماله المجيدة كترجمة مكنز العلوم الاجتماعية لمنظمة اليونسكو العربية وغير ذلك من الأعمال الببليوجرافية، وهناك دراسات عديدة قام بها أحمد بدر وسعد الهجرسى ومحمد فتحى عبد الهادى وغيرهم ومن بينها ما قام به أحمد بدر فى مجال التخطيط الوطنى واسترجاع المعلومات فى مجال التربية ونشرت ألكسو هذه الأعمال وقد كانت هناك محاولات جادة لوضع نظام وطنى مصرى لاسترجاع المعلومات فى مجال الكيمياء (BADR, A., 1965) 76 p. بالاشتراك بين المركز القومى للإعلام والتوثيق ومركز بحوث العملات التابع لمعهد التخطيط القومى (Memo. No. 559) بعنوان Information Retrieval : and its potential for progress of research in the U.A.R., 1965 ولكن هذه التجربة لم تستمر وحل محلها بعد حوالى ثلاثين عاماً شبكة ENSTINET. بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

هذا فضلاً عن آلاف الكتب التى ترجمها الباحثون والممارسون ومئات أطروحات الماجستير والدكتوراه والدراسات الببليوجرافية الأصيلة فى المجالات العربية والإسلامية.

وما يذكره الباحث هنا ليس سرداً أو حصراً لهذا النشاط خلال أكثر من نصف قرن ولكنه نظرة طائر علي هذه الجهود الكثيفة وبالتالى فهى تدخل فى باب فلسفة علم المكتبات والمعلومات العربى الذى أفاد ويفيد من التطورات العالمية الإدارية والفنية والتكنولوجية خصوصاً الأمريكية والبريطانية والفرنسية وتطويعها للبيئة العربية ويهدف بذلك إلي تأصيل هذا العلم فى الأرض العربية ..

ثانياً : الفلسفة مع مهنة المكتبات والمعلومات عبر التاريخ :

إذا استخدمنا مصطلح الفلسفة ليعنى البحث عن الحقيقة ومتابعتنا، أو وضع المبادئ والأسس اللازمة لتسيير العمل أو إنشاء النظريات التى تشرح الحقيقة، فالفلسفة هنا ضرورية، بل لا يمكن الاستغناء عنها (أحمد بدر، ١٩٧٥) .

هذا والفلسفة فى حقل المعرفة التى تحتوى على تركيز أكثر المعارف العامة المختزنة والمنظمة، وتتعلم الفلسفة من مختلف العلوم ولكنها تسبق هذه المعرفة وتنقلها مرة ثانية إلي العلوم المختلفة بكميات مختلفة، ويمكن أن يتعلم علم المعلومات من الفلسفة ولكن الفلسفة لا تملى المبادئ على العلوم الأخرى، أى أنه لابد من وجود التعاون بين الفلسفة والعلوم الأخرى، وأن على علم المعلومات أن يضع ويفهم مشكلاته الفلسفية الخاصة به.

لقد تبين للباحث فيكرى (أحمد بدر، ٢٠٠٢) أن الفلسفة مصدر مناسب للفروض الجديدة وقال فيما قال إذا أرادت النظرية الرابطة لعلم المعلومات أن تثبت نفسها فعليها أن تربط نفسها بالفروض السابقة الموجودة فى علم المعلومات حتى تظهر مواطن الضعف والقوة وتقترح البدائل.

ومن الإسهامات الفلسفية المبكرة ما كتبه رونالد ستافلى (أحمد بدر، ٢٠٠٠م) من اعتماد فلسفات المكتبات على بعض أسس **المعتقدات العامة كالإنسانية** Humanism **والوجودية** Existentialism **والأفلاطونية** Patonism **والبراجماتية** Pragmatism **والإيجابية المنطقية** Logical positivism **والماركسية** Marxism وأن فلسفة المكتبات يمكن أن تستمد الإلهام من أى واحدة من هذه المعتقدات .

ولعل العالم جيسى شيرا Jesse Shera عميد مدرسة المكتبات بجامعة كيس وسترن ريزرف – والمشرف على رسالة الدكتوراه لكاتب هذه السطور – من أوائل الذين حاولوا **وضع أساس نظرى للمكتبات**، وأن بؤرة الدراسات المهنية يجب أن يتم البحث عنها فى دائرة الابستومولوجيا والتى سماها شيرا (فى كتابه الذى أعده مع مرجريت إيجان : عن التنظيم الببليوجرافى) الابستومولوجيا الاجتماعية (أحمد بدر، ١٩٧٥) ولعل هذه الدعوة التى بدأت مع بداية الخمسينيات قد ظهرت ثمارها يانعة فى نهاية القرن العشرين على يد المدرسة الإسكندينافية.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه فى أواخر الثمانينيات (١٩٨٨) ظهر كتاب علم المعلومات والتكامل المعرفى لمؤلفه انتونى ديبونز وزملائه وتعريب أحمد بدر ومحمد فتحى عبد الهادى حيث ذكر فيه نبذة عن نشأة علم المعلومات وأن له جذوراً أولية كثيرة أحدها الأبستومولوجيا أو دراسة المعرفة (Epistemology) كما ذكر فى كتابه أيضاً أن المجالات الأساسية الأربعة التى تعد أكثر أهمية لدراسة المعلومات هي : **الفلسفة، الرياضيات (الإحصاء)**، اللغويات، علم السلوك هذا ويشمل كتاب أحمد بدر، ومحمد فتحي عبد الهادى جزئيين أولهما من تسعة فصول معربة (٢٢٨ ص) عن كتاب د. بونز الذى صدر عام ١٩٨٨ وثانيهما من فصلين ألفهما المعربان (١١٦ ص) أى أن إسهامهما التأليفي كان أكثر من ثلث الكتاب، من أجل تحديث الكتاب الأصلى (حيث مراجع الفصل

العاشر المؤلف وصلت ستين مرجعاً فى التسعينيات، ومراجع الفصل الحادى عشر المؤلف وصلت أيضاً ستين مرجعاً تعكس الإسهام العربى باللغة العربية، ويعتبر هذا الكتاب بذلك نوعاً من الإبداع العربى الذى يستوعب الفكر الأجنبى مع الإضافة إليه من الإبداعات العربية .

ثالثاً : بين الحاجة إلى فلسفة موحدة لعلم المكتبات والمعلومات والأفكار المتناقضة حول هذه الفلسفة ؟

يتضمن الإنتاج الفكرى فى هذا المجال وجهات نظر متعددة ففى البداية هناك من ينكر احتياج علم المكتبات والمعلومات إلى فلسفة، ويصدر هذا الرفض نظراً لعدم وجود فلسفة واحدة للمجال، تملأ الفراغ أو تحل محل فلسفة قائمة، وأن الجهود التى تبذل يجب أن توجه إلى صهر الأفكار الكثيرة المتعارضة، إلى شىء مفيد للمهنة (Zwaldo, J., april 1997) ومن بين ما جاء فى دراسة زوالدو Zwaldo أنه إذا كان البع يرى الإيجابية Positivism كفلسفة لعلم المكتبات والمعلومات فهى غير متبعة عملياً فى دراسات علم المكتبات، فضلاً علي أنها ليست الفلسفة المناسبة لهذا العلم، وهناك تعليقات وردود على رسالة زوالدو بأن هناك ندرة فى كتابات الباحثين عن فلسفة علم المكتبات والمعلومات، وأن الأمناء والمستفيدين من المكتبات يمارسون نشاطهم دن التفكير فى الفلسفة التى تحكم هذا النشاط (Radford, G, July 1997) وبعد استعراض جارى رادفورد وزميله جون باد Budd لمختلف الاتجاهات الفلسفية فى مجال علم المكتبات والمعلومات يذهبان إلى أن التركيبات الأبستومولوجية غير المرئية والأطر Paradigms المختلفة للعمل لم تتعرض للدراسة الفلسفية العميقة إلا حديثاً ويمكن الإشارة لبعض تفصيل هذه الحوارات :

* بين زوالدو Zwaldo ومعارضيه :

يذهب زوالدو إلى أنه إذا كان هناك ما يجمع بين الأمناء وعلماء المعلومات فهى الفلسفة، ثم استعرض الاهتمام الفلسفى فى الإنتاج الفكرى بداية من الباحث دانتون Danton عام ١٩٣٤ الذى قام بمسح للإنتاج الفكرى وتبين له أن حوالى ١ ٪ إلى ٥ ٪ فقط من هذا الإنتاج يتناول الفلسفة، وأن هذه النسبة مازالت تنسحب على الإنتاج الفكرى المعاصر، أما الباحث كيرتز رايت Wright عام ١٩٧٦ فقد خرج من دراساته إلى أن هناك تشابهاً كبيراً بين المكتبات والفلسفة، وقال فيما قال : إذا كانت المكتبات تتم دراستها أفضل كجزء لا يتجزأ من الدراسة الأكثر شمولية للإنسان، وهذه بالضبط هى الدراسة الفلسفية لعمليات المعلومات الإنسانية، على عكس الدراسة العلمية للبيانات Data، وقال فيما قال : يعتبر الأمناء فلاسفة للبحث ولكنهم ليسوا باحثين كما قام رايت Wright عام ١٩٧٩ بالتمييز بين المكتبات والعلم كما يلى :

١ - المادة Matter هى هدف دراسة العلم بينما الشكل Form هو هدف دراسة المكتبات .

٢ - منهج الدراسة فى العلم أمبيريقى بينما هذا المنهج فى المكتبات عقلانى Rational .

٣ - هدف السيطرة فى العلم هو فيزياء التجربة،

بينما يتحول هذا الهدف فى المكتبات إلى ما وراء الفيزياء من أفكار .

٤ – طرق السيطرة والتحكم نراها فى العلم بينما نجدها فى المكتبات المادة Material .(Zwaldo, 1997, p. 104)

كما دارت مناقشات أخرى تتصل بصفة الأمناء، هل هم علماء أم فلاسفة أو شيء آخر، وظهرت مقالات حديثة تتناول هذه الجوانب لكل من الباحثين جون باد Budd وجارد رادفورد Radford وأرشى ديك Dick .. ويعتقد هؤلاء الكتاب أن لعلم المكتبات والمعلومات فلسفة، وأن الإيجابية Positivism كانت فلسفة قديمة لهذا العلم (مستعارة من العلوم الطبيعية) وأنه يجب إحلالها بفلسفة جديدة .. وإن كان المؤلفون الثلاثة قد اقترحوا بدائل مختلفة لفلسفات من تخصصات أخرى .

وقيمة ما كتبه كل من باد ورادفورد وديك هى محاولاتهم توليد الوعى داخل علم المكتبات والمعلومات بالأساس الأبستومولوجى ثم وضع التساؤلات عن مدى وجدوى الإيجابية نحو المعرفة وتقديم أطر بديلة تعكس حقيقة الخبرة المكتبية.

وينتهى تعليق كل من «رادفورد وباد» إلى أن التركيبات الأبستومولوجية غير المنظورة والأطر Paradigms المتصلة بمجال المكتبات والمعلومات لم تأخذ نصيبها الكافى من الدراسة إلا مؤخراً. وبالتالى فنحن نعلن أننا فى حاجة ماسة إلى فلسفة لعلم المكتبات والمعلومات وأننا مع مختلف الأفكار الفلسفية العديدة المعروضة والتى تعكس حيوية ونمو علم المعلومات والمكتبات .

بل تعيدنا هذه المحاورات مرة أخرى للمنظور الكلى للركائز الأبستومولوجية حيث التكامل بين مختلف الاتجاهات العلمية والإنسانية لتطور وتوحيد جوانب علم المعلومات والمكتبات. ولم يقتصر الأمر على فلسفة علم المعلومات والمكتبات وإنما تناولت الفلسفة أيضاً بعض فروعه وخاصة التصنيف والتحليل الموضوعى .

رابعاً : بعض الأصول الفلسفية لعلم التصنيف ونظرياته :

لعل أفلاطون هو أول كاتب معروف لنا قد بدأ معالجته للتصنيف على أساس الفرض الفلسفى لوحدة المعارف جميعها ثم ذهب أفلاطون إلى افتراض موازاة هذه المعارف لنظام طبيعى عالمى ودائم، وقسم العالم إلى العالم المرئى والعالم الذى يمكن إدراكه بالعقل وحده، والعالم المرئى يتكون من الأشياء وصورها، والعالم المدرك بالعقل يتكون من المفاهيم والأفكار. (ولعل فكر أفلاطون هذا يتفق مع التعاليم الإسلامية التى جاءت بعد ذلك).

ولقد تأكدت وحدة العلوم والمعرفة الإنسانية عند العرب والمسلمين مع دخولهم الإسلام وإيمانهم بعقيدة الوحيد، ومعظم الذين أسهموا من العرب والمسلمين فى التصنيف كانوا فلاسفة مل الكندى فيلسوف العرب الذى تأثر بأرسطو والاهتمام بالدين الموحى به وبالعلوم الإنسانية أى احتلت المعارف الدينية، والمعارف الفلسفية (الميتافيزيقا) والمعارف الروحية Gnosis أعلى المراتب فى التصنيف، أما الفارابى (الملقب بالمعلم الثانى (لتأثره بأرسطو المعلم الأول) فقد وضع تصنيفه فى كتابه «التنبيه على سبيل السعادة وإحصاء العلوم» وظهر

تأثيره على علماء المسلمين وفلاسفتهم أمثال ابن سينا والغزالى وابن رشد وهناك فلاسفة وعلماء عرب ومسلمون أسهموا إسهاماً أصيلاً فى فلسفة التصنيف منهم الخوارزمى وابن النديم وابن سينا وفخر الدين الرازى وابن خلدون وطاش كبرى زاده.

وعلى الجانب الأوروبى وبعد الإسهام العربى الإسلامى بعدة قرون نجد تصنيف فرانسيس بيكون وهو فيلسوف أساساً واعتمد فى إعداد تصنيفه على الملكات الإنسانية : الذاكرة والتصور والعقل ومن الذاكرة جاء التاريخ وفروعه ومن التصور جاء الأدب والفنون الإبداعية ومن العقل جاءت الفلسفة والعلوم العقلية، وقد ميز كانت Kant بين المعرفة العقلانية والمعرفة العلمية (أو الأمبيريقية) مثلما فعل أفلاطون من قبل، وإذا ما تعرفنا على أعمال هيجل فسنجد أن نظامه يعتبر جميع الظواهر والأفكار والعلوم أجزاء مكونة للحقيقة الكلية، ولكن هيجل وصل إلى هذا التركيب والوحدة المعرفية عن الطريق الميتافيزيقى وليس عن طريق العلم الطبيعى أو الأمبيريقى .

أما أوجست كومت Auguste Comte فقد أعلن أن النظام الأساسى للمعرفة هو نظام يتميز بتناقص العمومية وزيادة التعقيد، وأن هناك ثلاث مراحل للتقدم الفكرى تتمثل فى المستوى الدينى ثم المستوى الفلسفى الميتافيزيقى ثم المستوى العلمى.

وأخيراً فقد جاء إسهام رانجاناتان عالم الرياضيات الهندى بقوانينه الخمسة فتحاً بالنسبة لممارسة المهنة على أساس مثالى أو أخلاقى متميز، أى أن قوانيه كانت قوانين اجتماعية فلسفية تهدف للارتقاء بمستوى مهنة المكتبات، كما وضع رانجاناتان نظام تصنيف الكولون وما يحتويه من أصالة نظرية فى المجال، إذ يعتبر تحليل الأوجه Face Analysis نظرية عن الموضوعات، ولعل بليس ورانجاناتان ومن قبلهما سيرز Sayers قد أدخلا مفهوم تعدد الوجوه Multiple Faces وإن كان رانجاناتان كان أكثر وضوحاً من أن التصنيف المكتبى تقديم للفكر المتعدد الأوجه فى شكل أحادى الخط Multidimensional thought in Unilinear form وعلى كل حال فيمكننا أن نقول بأن نظرية تنظيم المعرفة قد تطورت منذ أفلاطون وحتى هنرى بليس ورانجاناتان على افتراضات أساسية أربعة وهى :

أ – أن هناك نظاماً طبيعياً وعالمياً سيبين لنا – إذا ما اكتشفناه – الإطار الفكرى الدائم للمعرفة الإنسانية جميعها .

ب – أن هذا النظام يتميز بترتيب تنازلى من الجنس إلى النوع إلى القسم ثم إلى الرتبة أى أنه يتم من أعلى إلى أسفل، من الأكثر عمومية إلى الأكثر خصوصية. (ولعل هذه الصفة تميز تصنيف طاش كبرى زادة أى الاعتماد على الاستنباط والاستقراء معاً، وكانت هذه فكرته قبل رانجاناتان) .

جـ – أن مبدأ التمييز يتم بناء على درجة التشابه أو الاختلاف لصفات وخواص الوحدات المكونة للتصنيف .

د – أن هذه الصفات والخواص تعتبر جزءاً جوهرياً وداخلاً ضمن وحدة التصنيف ذاتها، وأن هذه الصفات دائمة لا تتغير .

لقد استوعب د. عبد الوهاب أبو النور علم

العرب وعلم العجم (العالم الغربى) فى التصنيف، ووضع تصنيفاً لعلوم الدين الإسلامى جمع فى فلسفته بين تصنيف رانجاناتان وبليس فى التحليل الوجهى وفى فلسفة التصنيف لطاش كبرى زادة. ولكن هذا التصنيف لم يجد البيئة العربية التى تساعده على النمو والتطبيق ولكنه علامة بارزة فى وضع تصنيف حديث فى علوم الدين الإسامى .

خامساً: مناهج البحث بين المنطق الاستنباطي والتعليل الاستقرائى وماذا عن الإسهام العربي في مجال البحث العلمي:

إذا رجعنا لتاريخ البحث العلمى تبين لنا أن الباحثين على مر التاريخ قد لجأوا إلى المنطق الاستنباطى أو استخدام التعليل الاستقرائى .. Deductive logic or inductive reasoning والاستنباط هو المنطقية المنهجية التى وضعها أرسطو حيث يبدأ الباحث بمقدمة متفق عليها (الناس جميعاً يموتون / محمد من بين الناس / محمد مات) وصدق النتائج هنا ينبع من صدق المقدمات الموضوعة وهى هنا (الناس جميعاً يموتون) .. وبالمقابل فإن التعليل الاستقرائى يبدأ من بعض الحقائق الجزئية أى أن الباحث هنا يبدأ من أن (محمداً قد مات) ثم يلاحظ أن هناك رجالاً كثيرين يموتون ومن هنا يمكن أن يقرر الباحث أن كل الرجال الذين قام بملاحظتهم يموتون ويصل إلى النتيجة بأن (كل الناس يموتون)، وليس الاستقراء بهذه البساطة المعروضة هنا ولكن ذلك كان مجرد مثال لبيان الفرق بين الاستنباط والاستقراء .

لقد كان أمراً طبيعياً أن يفيد العرب من الحضارات والمناهج والمعارف السابقة لهم ... والحضارة الإنسانية ليست إلا عقداً متصل الحلقات.. ومما لا شك فيه أن الحضارة العربية هى حلقة الاتصال بين حضارة ما قبلهم من اليونان والهنود وحضارة أوروبا فى عصر النهضة ... ولم يكن العرب ناقلين لحضارة اليونان فحسب ولكنهم أضافوا إليها علوماً وفنوناً كثيرة تميزت بالأصالة العلمية .

وما يهمنا نحن بالدرجة الأولى هو طريقة أو منهج البحث، فقد تجاوز الفكر العربى الحدود الصورية لمنطق أرسطو ... وقد عارض العرب المنهج القياسى وخرجوا على حدوده إلى اعتبار الملاحظة والتجربة مصدراً للبحث والتقدم العلمى .. فالأقيسة المنطقية – كما يقول ابن خلدون – أحكام ذهنية، والموجودات الخارجة متشخصة فالتطابق بينهما غير يقينى، لأن المادة قد تحول دونه، اللهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين المنطقية .

لقد اتبع العرب فى إنتاجهم العلمى أساليب مبتكرة فى البحث، فاعتمدوا على الاستقراء والملاحظة والتجريب العلمى والاستعانة بأدوات القياس للوصول إلى النتائج العلمية ... ونبغ من هؤلاء كثيرون منهم الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان ومحمد بن موسى الخوارزمى، والبيرونى، وأبو بكر الرازى، وابن سينا وغيرهم .

وقد قال الدكتور سارتون Sarton أحد مشاهير العلماء الأمريكيين فى تاريخ العلوم «لقد كان العرب أعظم معلمين فى العالم فى القرون الثلاثة :

الثامن، والحادى عشر والثانى عشر الميلادى ... ولو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون ... فوجود حسن بن الهيثم وجابر بن حيان ... وأمثالهما كان لازماً، وممهداً لظهور غاليليو ونيوتن.. ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ... ولم لم يظهر جابر بن حيان لبدأ غاليليو من حيث بدأ (جابر) ... أى أنه لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية (فى القرن الرابع عشر) من النقطة التى بدأ منها العرب نهضتهم العلمية فى القرن الثامن للميلاد .

وكتب البحث العلمى الأجنبية فى دراستها للمناهج تبدأ بالمنهج الاستنباطى لأرسطو ثم القفز مباشرة إلى القرن الخامس عشر وتشير إلى فرانسيس بيكون على اعتبار أنه مخترع المنهج التجريبي الاستقرائى وهذا غير صحيح كما قدمنا بالدليل .

لقد ركز القرآن الكريم باعتبار آياته سبيل الوصول إلى حقائق الكون وخالقه، على مناهج علمية ثلاثة وهى (أ) المنهج الإلهى(*) (الذى يعتمد على إيماننا بالغيب، فكل علم لا نعرفه هو غيب لنا وهو علم عند الله ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ (سورة ق : الآية ٤) (ب) ثم المنهج التجريبى المتصل بالملاحظة والتجريب، والملاحظة هنا هى الملاحظة العلمية لانتظامات ظواهر الكون التى لا يمكن أن يخلقها إلا بديع السموات والأرض ولأنها إعجاز ليس بعده أو قبله إعجاز (ج) المنهج الوصفى التاريخى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (سورة ق : الآيات ١٢-١٤)، ومعروف فى دراستنا للمنهج العلمى التركيز على المنهج الوصفى التاريخى والمنهج التجريبى (وهو المطبق أساساً فى العلوم والتكنولوجيا للتعبير الكمى عن الظواهر، أما العلوم الاجتماعية فى محاولاتها تقليد العلوم الطبيعية، فقد اصطنعت منهج المسح للتعبير الكمى عن الظواهر الاجتماعية).

وخلاصة هذا كله أن العرب أسهموا بإنتاجهم العلمى الأصيل وأسهموا باصطناع منهج الاستقراء واتخذوا الملاحظة والتجربة أساساً للبحث العلمى وأنهم أفادوا من حضارة من سبقهم كاليونان والهنود وأنهم أسهموا فى الحضارة الإنسانية خصوصاً فى العصور الوسطى وأنهم نقلوا هذه الحضارة جميعاً إلى أوروبا فى بداية عصر النهضة كما أن للعرب دوراً فى مناهج البحث وافتراضاته Assumptions وفى أهدافه وغاياته، وهو إسهام أصيل مستمد من الحضارة العربية الإسلامية (أنظر فى ذلك : الإسلام ومفاهيم علم المعلومات، كتاب أحمد بدر التكامل المعرفى) .

(*) لعل أحمد بدر قد تأثر بأعمال الفارابى فى إحصاء العلوم حين ذكر العلم الإلهى والذى يبحث عن الموجود بما هو موجود، وعن مبادئ البراهين فى العلوم النظرية وبحث الموجودات التى ليست لها أجساماً، ولا فى أجسام بغرض الاستدلال على وجود الله تعالى (دائرة المعارف العربية فى علوم الكتب والمكتبات والمعلومات، توفر عليها شعبان عبد العزيز خليفة، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية سنة ٢٠٠٠ الجزء الرابع، ص ٢٤٨ .

سادساً : النظريـــة فـــي بحـــوث علم المكتبات والمعلومات :

يشير باول فى كتابه عن مناهج البحث الأساسية للأمناء (Powell, R, 2004 : 314) إلى أن هناك تعاريف عديدة للنظرية : فيعرفها العالم بابى Babbie بأنها «مجموعة مركبة من العلاقات بين متغيرات متعددة» ويعرفها مارشال Marshall بأنها «مجموعة الفروض المترابطة التى تشير إلى سبب حدوث الظواهر بطريقة معينة» ويعرفها ماجراث McGraht بأنها «شرح لظاهرة كمية» كما يراها البعض كشرح موحد لملاحظات مميزة» .

أما أحمد بدر فى كتابه الفلسفة والتنظير (أحمد بدر ، ٢٠٠٢ : ٥٦+) فيري أن هناك أنواعاً مختلفة من النظريات حيث يمكن أن نرى النظرية كأى مجموعة من **الأفكار والمفاهيم** التى تعبر عن ظاهرة معينة والتى ترشد الباحث إلى طريق البحث فى هذه الظاهرة وأن تتنبأ ببعض النتائج، كما أن القوانين الاجتماعية التى تخضع لها دراسات المكتبات والمعلومات ليست مطلقة فهى محدودة بالظروف المكانية أو الزمانية أو غير ذلك كما أن هذه القوانين احتمالية أو تقريبية، وبالتالى يمكن استبدالها أو تعديلها بقوانين أخرى أكثر دقة أو إحكاماً، مثل قوانين عديدة فى القياسات الببليومترية وعلى كل حال فالنظرية تعبر عن مفاهيم كما أنها شرح نظرى لكفاءة نظم المعلومات وسلوك المستفيدين ووظيفة عناصر البحث المختلفة مثل الواصفات والاستشهادات والعناوين ... إلخ.

وعلى الرغم من عدم وجود العديد من النظريات الواضحة القاطعة Explicit فى علم المعلومات، إلا أن مختلف وجهات النظر المعرفية تقع فى خلفية جميع قضايا علم والمعلومات وتعتبر النظريات المعرفية Epistemological theories ذات تأثير أساسى على النظريات المتصلة بالمستفيدين وإدراكهم ومعارفهم وسلوك البحث عن المعلومات وعلى التحليل الموضوعى واسترجاع المعلومات والاختيار ودور المهنيين فى المعلومات وم هنا يؤكد هورلند Hojarland على ضرورة اعتماد علم المعلومات على المعرفة الأبستومولوجية ومرتكزاً فى ذلك على المعرفة الفيزيائية والاجتماعية والتاريخية .

* وجهة نظر هورلند

(Hojland. B., 1998)

يرى هورلند أن النظرية فى علم المعلومات هى شرح نظرى لكفاءة نظم المعلومات ولسلوك المستفيدين ولوظيفة عناصر البحث المختلفة كالواصفات Descriptors والاستشهادات والعناوين... إلخ ولكنه يشير إلى أننا لا نملك نظريات واضحة فريدة لعلم المعلومات، وعادة ما تطبق نظريات من حقول أخرى (كعلم النفس والاجتماع أو الإدارة أو الاتصال) فى علم المعلومات، وما يسمى بنظرية المعلومات (لشانون وويفر) ليست نظرية لعلم المعلومات، بل هى نظرية للإشارات وقياسها أى أنها نظرية لعلم الحاسب والاتصالات. [وفى دراسته للفلسفة والتنظير فى علم المعلومات والمكتبات (٢٠٠٢ الفصل السادس) يشير أحمد بدر فى هذا الفصل إلى قائمة ببلوجرافية شارحة عن علاقة نظرية المعلومات لشانون بعلم المعلومات والتوثيق والمكتبات (نشرت فى الأصل فى مجلة معالجة وإدارة المعلومات ١٩٨٤، مج ٢٠ (٢))

وشملت (٤٤٠) أربعمائة وأربعين مدخل لتأكيد هذه العلاقة] ..

ويستطرد هورلند قائلاً : لقد حاولت برامج مدارس المكتبات أن تضع نظريات ومشكلات الاتصال فى موقع محورى من نظرية المكتبات، ولكن الملاحظ فى الإنتاج الفكرى للاتصال ندرة ذكر المكتبات ولعل ذلك يعود إلى اعتماد المكتبات على هيئات علمية أو ثقافية أكبر، أى أن المكتبات لا تنشئ اتصالات ومعرفة ولكنها تقوم بتوصيلها فقط.

كما يرى هورلند أن هناك بعض المداخل المحددة Specific approaches – مثل الاسترجاع اللوغاريتمى والاسترجاع المعتمد على الاستشهاد – التى يجب أن نطلق عليها نظريات وإن كانت تعتمد أيضاً على أساس من الافتراضات التى يمكن أن نسميها نظريات رابطة metatheretical .

وعلى كل حال فهو يرى أن النظرية الرابطة وافتراضاتها أكثر اتساعاً وأقل تحديداً من النظريات، كما أن الافتراضات الخاصة بالنظريات الرابطة موصولة ومرتبطة أيضاً بوجهات النظر الفلسفية، وهى تعتبر غالباً أجزاء من الاتجاهات المتداخلة التخصصات Interdisciplinary trends .

* وجهة نظر براين فيكري :

يصف براين فيكرى (فى أحمد بدر، الفلسفة والتنظير، ٢٠٠٢) النظرية الرابطة بأنها تحليل للفروض السابقة لحقل من الحقول والممارسات، وهذه الفروض السابقة (كما ينقل فيكرى عن ناش Nash) هى نماذج Patterns للفكر والتى نرى من خلالها الخبرة وأنها المباد المنهجية التى تكللت بالنجاح عند الممارسة، أما فلسفة العلم (كما ينقل فيكرى عن هارى Harre) فهى لا تعتبر مجرد نظريته العامة، ولكنها تعتبر التبرير لفعل شىء معين أى أنها تبرير ممارسة العلم .

كما ينقل فيكرى عن برير Brier أيضاً استخدامه لمصطلح النظرية الرابطة على أنها إطار فكرى يشمل المشكلة الكلية التى كافح معها الأمناء والموثقون لقرون عديدة .. وأن هذه النظرية الرابطة ليست ثابتة فهى تتعدل عندما تكون غير كافية للاستجابة للممارسة، أو أنها تتناقض مع أفكار أكثر تقبلاً أو أن النظرية الجديدة أكثر إفادة Fruitful، هذا ومصدر النظرية الرابطة هو نفس مصدر الفروض الجديدة فى العلم. ويشير فيكرى إلى أن مدخل برير Brier فى تطور النظرية الرابطة لعلم المعلومات مشابه للعديد من الإسهامات فى حقل علم المعلومات فهو يتقدم عن طريق اختبار فيلسوف فى القرن العشرين ثم اقتباس مبادئه وتقديمها كفروض مسبقة يمكن أن يعتمد عليها علم المعلومات .

وخلاصة هذا كله أن المعالجة الفلسفية لكل من فيكرى وهورلند فيها اختلاف واتفاق من وجهات نظر متعددة خصوصاً بالنسبة لنطاق النظرية الرابطة وتعريفها والتمييز بين النموذج Model والنظرية .

* وجهة نظر فيكاري (فنلندا) :

إذا كان الكاتب قد أشار لوجهة نظر كل هورلند وفيكري فهناك من يرى تطبيق نظرية العلم

على نظرية البحث عن المعلومات (Vakkari, P., 1997) لقد هدفت دراسة البحاث فكارى وزميله إلى تحليل نمو النظرية فى علم المعلومات وذلك بدراسة حالة عن دراسات البحث عن المعلومات In-formation seeking، وقد وضع الباحثان نقطة الانطلاق من تشابه النمو العلمى مع النمو فى النظريات وهناك ثلاثة سياقات contexts من العمل النظرى، فقد تم التمييز بينها وهى : الوحدة فى النظريات (unit)وبرامج البحوث النظرية والنظريات الرابطة metatheories .

لقد قرر المؤلفان منذ البداية أن هدف العلم هو زيادة معارفنا وفهمنا للعالم وأن علم المعلومات يشارك فى هذا الهدف الأساسى وهو متابعة المعرفة مع غيره من حقول البحث، فنمو المعرفة هو نمو للنظريات العلمية .

وإذا كان من الممكن دراسة النمو العلمى عن طريق تطبيق الأساليب الببليومترية، إلا أن هذه الأساليب تترك أسئلة مفتوحة عن التغييرات المعرفية cognitive changes فى العلم، وبالتالى فمقارنة النظريات الخاصة بموضوع معين يمكننا من تقييم التطورات والتغييرات المعرفية congitive changes فى هذا الحقل البحثى المحدد عن طريق إعادة البناء reconstruction .

ويذهب الباحثان إلى أن هناك نقصاً فى تكون النظرية فى علم المعلومات ومن النادر وجود النظريات الواضحة المحددة، وفى حقل دراسات البحث عن المعلومات فقد ظهرت صعوبة بالغة فى العثور على نظريات مترابطة فيما بينها وذلك حتى يمكن تحليلها لتقييم النمو النظرى .

ومن هنا اقتراح الباحثان إعادة بناء النظرية كطريق أساسى لتجنب الصعوبات التى سبق إيضاحها ثم إتباع أدوات فلسفة العلم والتى كانت داعمة لوضع وصياغة المفاهيم وعلاقتها فى نظرية موحدة، والكشف عن روابط جديدة بين المفاهيم وبالتالى إدخال مفاهيم وفروض جديدة .

ونخلص من هذا التحليل التاريخى لفلسفة ونظريات المكتبات والمعلومات إلى أنه ليس هناك حدود فاصلة قاطعة ين النظريات (والنظريات الرابطة) والمداخل والأطر والمواقف الفلسفية، فهذه جميعاً ذات ارتباط وتداخل فيما بينها overlapping، فالافتراضات الخاصة بالنظرات الرابطة (metatheories) ترتبط بوجهات النظر الفلسفية وهى تشكل أجزاء من الاتجاهات المتداخلة الارتباطات interdisciplinary ولعل ذلك يصدق مع آخر كتاب ظهر فى المجال وهو كتاب جاك جلازير عن إطار التخصصية المتعدد فى بناء النظرية (Glazier, J., 2002) .

سابعاً : علم المعلومات علم رابط بين العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانيات :

إذا كان البعض يرد النشاط المهنى للمكتبات إلى عام ١٨٧٦ وهو بداية إنشاء جمعية المكتبات الأمريكية، فإن مصطلح «علم المكتبات Library science» يعود إلي عام ١٨٠٨م وما بعدها حين أدخل مارتن شريتنجر (Schrettinger, M., 1908) هذا المفهوم، كما صدر للعالم بتلر But-tler كتابه «مقدمة فى علم المكتبات» عام ١٩٣٣م، أما رانجاناثان فظهر كتابه بنفس العنوان تقريباً عام ١٩٤٨م وفى السنة أيضاً ظهرت أول

رسالة دكتوراه من جامعة شيكاغو حيث اتبع فسلر (fussler) صاحبها المنهج الببليومترى .

وإذا كان مصطلح التوثيق قد ظهر عام ١٩٣٤ فى مؤلف لفول أوتلت (Ottlet) فجذور علم المعلومات تعود إلى جهات مختلفة، إذ يراه البعض الوريث الطبيعى للحركة العلمية للتوثيق (جامعة كيس وسترن ريزرف بأمريكا حيث كان يدرس علم التوثيق منذ عام ١٩٥٠ وفى عام ١٩٥١ كان يدرس بجامعة كولومبيا، ويرد البعض الاسم إلى عام ١٩٥٨ حين أنشىء معهد علماء المعلومات فى انجلترا، للتمييز بينهم كممارسين للمعلومات العلمية وبين العاملين فى المختبرات، كما يرده البعض إلى عام ١٩٣٧، وهو عام إنشاء المعهد الأمريكى للتوثيق، وإن كان البعض يرده أيضاً إلى عام ١٨٩٥م. وهو عام إنشاء المعهد الدولى للببليوجرافيا عام ١٨٩٥م.

ويهدف الباحث من وراء بعض هذا التفصيل إلى أن علم المعلومات قد ولد بمؤسساته الرسمية فى الستينيات وكان المشايعون له أساساً من علماء العلوم الطبيعية (مثل بوش وبرايس ووابنر وسيمون وساموبلسون وجارفيلد والن كنت، وبراين فيكرى وبروكس ورانجاناتان، وكاتب هذه السطور) وكان الإطار النظرى الفيزيائى الطبيعى هو السائد، ثم جاءت فترة تالية ساد فيها الإطار النظرى الاجتماعى التاريخى الإنسانى ثم أصبح الإطار الفلسفى المعرفى هو المعبر عن هذا التكامل فى نهاية القرن العشرين.. والدراسة الحالية هى جولة علمية منهجية فى هذه الحلقات مركزين على الزمن الحاضر مع إظهار علم المعلومات والمكتبات كعلم رابط وضابط للتخصصات الطبيعية والاجتماعية والإنسانية .

أحد المراجع منذ بداية القرن الحادى والعشرين تشير إلى حلقات متتالية من التنظير فى علم المعلومات فالتركيز فى البداية على الإطار التاريخى الاجتماعى حيث تعتبر المكتبة مؤسسة اجتماعية ضرورية فى تاريخ التطور الحضارى، ثم الإطار الفيزيائى الطبيعى، فعلماء استرجاع المعلومات يركزون فى منتصف القرن العشرين على الأساس العلمى الذى تدعمه تجارب كرانفيلد ثم الإطار المعرفى Cognitive paradigm حيث المنظور الكلى اللازم لتكامل المعرفة الأمبيريقية من مختلف التخصصات الفرعية فى إطار فكرى موحد، وهذه مثل دراسات سلوك البحث عن المعلومات واحتياجات المستفيدين وغيرها فوجهة النظر المعرفية تعتمد على النموذج النسبى للمعرفة والذى يتغير بواسطة العمليات المعرفية الاجتماعية، كما أن المدخل المعرفى متعدد الارتباطات (Orom, A. 2000) (Horland, 1998) من كتاب أحمد بدر عن الفلسفة والتنظير (٢٠٠٢) ص ٥٠-٥٥ .

ومن وجهة أخرى فقد قام العديد من الباحثين بالتعرف على العلوم التى يأخذ منها علم المعلومات مفاهيمه وأفكاره الأساسية فكانت المجالات التى تسهم فى نمو علم المعلومات حسب إحدى الرسالات (رسالة الباحث أفشرباناه أنظر أحمد بدر : أساسيات علم المعلومات : ١٧٢) ٤٩ مجالاً رتبها حسب درجة أهمية إسهامها فى علم المعلومات أما الرسالة الثانية للصباغ .. نفس المرجع) فهناك (٣٢) مجال رئيسى وفرعى تسهم فى علم المعلومات، وقد عقد الباحث مقارنة بينهما فى كتابه المذكور.

وفى الاتجاه المعاكس أى إمكانية إسهام علم المعلومات فى نمو العلوم الأخرى والتأثير عليها جاء مقال الباحثة كرونين Cronin (انظر كتاب أحمد بدر ومحمد فتحى الهادى : علم المعلومات والتكامل المعرفى : ٢٦٧)، أى أن علم المعلومات يأخذ من العلوم الأخرى وهو يعطيها أيضاً من أفكاره ومنهجيته وأساليب التنظيم والضبط .

والمهم الذى يطرحه كاتب هذه السطور هو النظرة العالمية لتوجهات مستقبل البحوث فى علم المعلومات لتأكيد طبيعته الضابطة الرابطة الوسيطة بين العلوم، وذلك من خلال الإشارة إلى جوانب أربعة وهى :

أ – علم المعلومات علم رابط له نظرية رابطة أيضاً metatheory .

ب – الأطر الفكرية المتعاقبة عبر الزمن : الإطار الفلسفى الاجتماعى التاريخى إلى الإطار الطبيعي ثم إلى الإطار البيولوجي ثم الإطار المعرفى وبالذات نحو نظرية المعرفة الابستومولوجية Epistemological مع التركيز على أطر معينة فى تاريخ اجتماعيات العلم .

جـ– التصنيف والتنظيم كمحور لأنشطة مهنة المكتبات والمعلومات تدعمها التكنولوجيا المعاصرة والدراسات العلمية فى اللغويات والذكاء الاصطناعى والحاسبات بصفة خاصة.

د – الدراسات الببليومترية وهى هنا ترى كمنهج أصيل من المناهج الببليوجرافية التى ابتدعها علم المعلومات وهى ذات أهمية خاصة لسببين أولهما أنها تضع بقوانينها العديدة (التى زادت على ثلاثمائة قانون) أساليب ضبط وتركيب المعرفة Structure فى مختلف العلوم بما يسمح برسم سياسة الدولة فى البحوث والتنمية فضلاً عن تقييم تلك البحوث بل ومعرفة قوة الدولة العلمية عن طريق شقائق الببليومتريقا (فى السيانتومتريقا والأنفورمتريقا وغيرها) (انظر فى ذلك الدراسة السيانتومترية للسعودية ومصر فى كتاب أحمد بدر وزملاؤه عن السياسة المعلوماتية واستراتيجية التنمية ٢٠٠١) وهناك الجانب الخاص بالمنهج الببليومترى المتصل بمعرفة كيفية تأثير مفاهيم وكتابات علم المعلومات على العلوم الأخرى للباحث كروبن (أحمد بدر الفلسفة، ٢٠٠٢) .

ونخلص من هذا كله إلى أن أنشطة العرب تدخل بشدة ضمن هذه النظرة العالمية لتوجهات مستقبل علم المعلومات عن طريق استيعاب ما يجرى فى هذا العالم من فكر وعن طريق دراساتهم وبحوثهم وتطبيقات أطروحاتهم التى تشمل هذه التطورات الأربعة السالفة الذكر .

ثامناً : نحو فلسفة ونظرية عامة للمكتبات والمعلومات وجذور الحضارة الإسلامية والعربية وإبداعات المحدثين :

استعراض عام :

لقد دارت مناقشات واسعة تتصل بالفلسفة وعلم المكتبات والمعلومات فى أنحاء متفرقة من العالم وهل هناك فلسفة لهذا العلم أم أننا لسنا بحاجة إلى فلسفة، فبداية المهنة كانت مع الممارسين وعندما جاء العلماء وضعوا فلسفات

متناقضة عن هذا العلم كما أوضحت الدراسة التى بين أيدينا .

كما دارت مناقشات أخرى تتصل بصفة الأمناء، هل هم علماء أم فلاسفة أو شيء آخر، وظهرت مقالات حديثة تتناول هذه الجوانب لكل من الباحثين جون باد Budd وجارى رادفورد Radford وأرشى ديك Dick .. ويعتقد هؤلاء الكتاب أن لعلم المكتبات والمعلومات فلسفة، وأن الإيجابية Positivism كانت فلسفة قديمة لهذا العلم (مستعارة من العلوم الطبيعية) وأنه يجب إحلالها بفلسفة جديدة .. وإن كان المؤلفون الثلاثة قد اقترحوا بدائل مختلفة لفلسفات من تخصصات أخرى .

بل تعيدنا هذه المحاورات مرة أخرى للمنظور الكلى للركائز الأبستومولوجية حيث التكامل بين مختلف الاتجاهات العلمية والإنسانية لتطور وتوحيد جوانب علم المعلومات والمكتبات .

وخلاصة هذا كله أنه ليس هناك فلسفة موحدة يتفق عليها الباحثون والدارسون فى مجال المكتبات والمعلومات .

أما بالنسبة للنظرية فى علم المكتبات والمعلومات فهناك اختلاف بل تعارض أيضاً بالنسبة لتعريفات هذه النظريات فهناك من يعرفها بأنها مجموعات مركبة من العلاقات بين متغيرات متعددة وهناك من يعرفها بأنها مجموعة من الفروض المترابطة التى تشير إلى سبب حدوث الظواهر بطريقة جذرية وهناك من يعرفها بأنها شرح لظاهرة كمية أو أنها شرح موحد لملاحظات مميزة أو أن هناك أنواعاً مختلفة من النظريات حيث يمكن أن ترى النظرية كأى مجموعة من الأفكار والمفاهيم التى تعبر عن ظاهرة معينة والتى ترشد الباحث لطرق البحث المناسبة لهذه الظاهرة وأن تتنبأ ببعض النتائج .

كما أن القوانين الاجتماعية التى تخضع لها دراسات المكتبات والمعلومات ليست مطلقة فهى محدودة بالظروف المكانية أو الزمانية أو غير ذلك ومن هنا كانت بداية دراستنا لهذا الموضوع هو أن علم المعلومات والمكتبات علم عالمى ولكن له فلسفة وممارسة وطنية أيضاً .

وأن ذلك يصدق مع الإنتاج الفكر المعاصر للباحث جلازير عن الإطار المتعدد التخصص لعلم المكتبات والمعلومات وأهميته فى بناء النظرية ولعل ذلك أيضاً هو محور كتاب أحمد بدر عن التكامل المعرفى لعلم المعلومات والمكتبات الصادر عام (٢٠٠٢) .

جذور الحضارة الإسلامية والعربية وإبداعات المحدثين:

يحتوى القرآن الكريم على آيات بينات تعكس أصول وأساسيات التطور الحضارى في العلم وما يسطر به القلم ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾، وما يسطر بالقلم هو الكتاب بأشكاله المختلفة – كمخطوط أو كمطبوع أو مسجل بالوسائل الالكترونية الحديثة – هو الذاكرة التى تحفظ ما مضى ليكون نقطة البدء للحاضر والمستقبل، ومع ذلك ينبغى أن نؤكد على أن الكتب على رفوفها كائنات خرساء لمن جهل فك رموزها وهنا يأتى دور المكتبة وأخصائى المعلومات فى

تجميع وتنظيم وتفسير ما تحويه هذه الكتب من ثروات وجعلها فى متناول الباحثين والدارسين والقراء .

إن دور المكتبة - من هذا المنطلق - دور حضارى لأن الكتاب هو الذى تتجسد فيه معظم الحضارات والثقافات، وعلى الرغم من أن الحضارات ليست كلها قائمة على كتاب ولكن أدومها أثراً وأرفعها قيمة وأرسخها جذوراً هى ما كان .

كما أن علم المكتبات والمعلومات لا يهتم بالقراءة محصورة فى تسجيلاتها وإجراءاتها الفنية فحسب، ولكنه يهتم بها فى إطار الفلسفة الاجتماعية التى نعايشها وفى إطار الأهداف التى تضعها المهنة لنفسها وفى منهجية البحث حيث تعتبر القراءة قاعدة الإنطلاق التى نبدأ منها لوضع الافتراضات أو المسلمات Basic Assumptions ثم الفروض والنظريات بعد ذلك وسبحان الذى أنزل القرآن وبدأه بكلمة [اقرأ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وإذا كنا فى دراستنا قد أكدنا على التكامل المعرفى لعلم المعلومات والمكتبات وعلى هدفه الأساسى فى خدمة جميع جوانب المعرفة الإنسانية والاجتماعية والطبيعية فإن فلسفة ونظريات علم المكتبات والمعلومات تؤكد على وحدة المعرفة الإنسانية كلها .. فسبحان الواحد الأحد خالق الكون كله والذى تعكس وحدانيته وحدة المعرفة .

وأخيراً بالنسبة للعلم - سواء كان علم المكتبات والمعلومات أو غيره من العلوم. فالله يعلمنا أننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً وأن العلم يزودنا فى كل يوم جديد بشىء جديد وهذا العلم القليل لا يقاس بالنسبة لعلمه الكامل سبحانه وتعالى، ولكننا فى النهاية لابد أن نؤكد أنه إذا كان العلم يساعد فى ترقية وزيادة معارفنا، فليس الهدف فيه هو زيادة القدرة والتنمية الاقتصادية أو التكنولوجية أو العسكرية فحسب كما هو الحال مع أدبيات الدول غير الإسلامية .. ولكن هدف العلم فى الإسلام هو أن يكون : ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ﴾ .

لقد استوعب المحدثون من علماء المعلومات والمكتبات العرب معظم تطورات العلم فى مجالات المكتبات والمعلومات ولهم إسهامات بارزة لخدمة البيئة العربية الإسلامية وترجموا آلاف الكتب وأعدوا مئات الأطروحات التى تعكس هذا المزج بين حضارة الدول المتقدمة المعاصرة والتراث الإسلامى .. وهذه هى فلسفة علم المكتبات والمعلومات المعاصر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجع الدراسة :

١ – أحمد بدر (٢٠٠٢). **الفلسفة والتنظير فى علم المعلومات والمكتبات** . القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ٣٣٤ ص.

٢ – أحمد بدر (٢٠٠٢). **التكامل المعرفى لعلم المعلومات والمكتبات** . القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . ٥٠٧ ص (خصوصاً الفصل الرابع : الإسلام ومفاهيم علم المعلومات) .

٣ – أحمد بدر (٢٠٠١). **مقدمة فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية** . القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (الفصل الأول : عن الإنسانيات بين مجالات المعرفة والفصل الثانى عن الفلسفة والفصل السادس عشر عن علم المعلومات والمكتبات) . ٢٠٧ ص .

٤ – أحمد بدر (٢٠٠٠). **مقدمة فى العلوم البحتة والتطبيقية** . القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (الفصل الثالث : العلم والتقنية فى المنظور الإسلامى بالإضافة إلى فقرات فى الفصول المختلفة عن أشهر العلماء العرب) ١١٩ ص .

٥ – أحمد بدر (١٩٩٨). **علم المعلومات والتكامل المعرفى** . القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (الكتاب تأليف أنتونى ديبونز وزملائه تعريب وإضافة أحمد بدر ومحمد فتحى عبد الهادى). (التعريف ٢٢٩ ص والإضافة ١١٥ ص) .

٦ – أحمد بدر (١٩٩٦) **أصول البحث العلمى ومناهجه** . ط ٩ . القاهرة : المكتبة الأكاديمية، ٥٢٩ ص .

٧ – أحمد بدر (١٩٨٨). **مناهج البحث فى علم المعلومات والمكتبات** . الرياض : دار المريخ للطباعة والنشر. ٤٢١ ص .

٨ – أحمد بدر (١٩٧٥) .**دراسات فى علم المكتبة والثقفاتين** . ط ١ . القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر (الفصل الأول : فلسفة المكتبات ووحدة المعرفة) .

9 - Budd, J. M. (July 1995) An Epistemological foundation for library & information science. **Library Quarterly**, V. 65 (3). pp. 295-398.

10- Busha, C (ed.) (1981). Library science research : The path to progress. In : library science research reader and bibliographic Guide, Littleton, Co: Libraries Unlimited.

11- Glazier, Jack D., Grover, R. (winter 2002). A multidisciplinary framework for theory building. **Library trends**. V. 50, p. 317-29.

12- HJorland, E. (2000). Library and Information science : Practic, theory and philososphical basis. **Information processing and management**. V. 36, p. 501-531.

13- Powell, R. R., Baker, L. M., Mika, J. J. (2002). Library and Information science: Practitioners and research. Library & Information science research. V. 24, p. 49-72. (4thed Research mothods for librarians, 2004).

14- Powell, R. R. (1999). Recent trends n research : A methodological Essay **Library & information scence research**. V. 21, p. 91-119.

15- Radford, G. P., John M. Budd (1997). We.do need a philosophy of library information science. We are not confused enough, A response to Zwoldo. library Quartery. V. 67 (3), 310-312.

16- Slife, B. D., Williams, R. N. (1995). What's behind the research Discovering hidden assumptions in the behavioral sciences. London : sage publications.

17- Vakkari, P; Knokkanen (1997). Theory Growth in information Science: applications of the theory of seience to a theory of information seeking J. Doc. V. 53 (5), 497-519.

المؤلفان فكارى وكوكانين ينتميان إلى قسم دراسات المعلومات والعلوم الرياضية والفلسفة فى جامعة تمبير فى فنلندا.

18- Vickery, B. C. (July 1975). Academic Research in library and Infomation studies. **Journal of librarianship**. V. 7, p. 153-60.

19- Zwaldo, J. (1997). We don't need a philosophy of library and information science. We are confused enough already. **Library Quarterly**. V. 67 (2), 103-121.